

تاريخ الاستلام: 2024/11/18



رؤى النص الأدبي وتشكيل المعنى: قراءة فى التأويل

جامعة غليزان / الجزائر

The complexities of learning and the reality of educational methods in the Algerian school

✉ BOUKAFHA Mohammed
mohammed.boukafha@univ-relizane.dz
Ahmed Zabana University, Rlizane -
Algeria

مَنْحَرُ الْبَحْثِ

يشكل مصطلح "النص" في حقل الممارسة النقدية المعاصرة، اللبنة التي ترتكز عليها الأحكام النقدية وكذا الرؤى الفنية، التي ما فتئت تعطي الانطباع بأن "النص" لا يزال ذلك المصطلح الذي لم يرس على مفهوم محدد، فهو تارة يتسع ليشمل الخطابات بشئ أنواعها (أدبية، سياسية، اجتماعية..)، وتارة أخرى يتقوَّض ليعني العبارة الواحدة أو الجملة الواحدة – بتعبير النحويين- وإنا نروم من هذه الورقة أن نلّم ببعض معاني مصطلح "النص"، وبالأخص "النص الأدبي"، وما يحيل إليه من مفاهيم تحدّد العلاقة بين النص والمبدع، وكذا النص والمتلقي، وإنا حين نتحدّث عن أحادية الرؤية، أو أحادية التشكل كما يراها البعض، إنّما نقصد بذلك أنّ "النص" قبل أن يوجد بالفعل، يكون أثراً لفكرة واحدة تتشكل لدى المبدع (صاحب النص)، ثم تتولّد عنها أفكار أخرى، إمّا تتابعا أو تعارضا أو تقابلا، ثم ينسج كلّ ذلك وفق طريقة معيّنة، وفي شكل هندسي معيّن يسمّى "نصاً"، فيصبح متفرداً ومنعزلاً عن صاحبه، وهنا يصبح للتأويل سلطة التحوير أو التّغيير أو التّبديل. الكلمات المفتاحية: النص، التأويل، التلقي، القراءة، الانفتاح والانغلاق.

ABSTRACT:

In the field of contemporary critical practice, the term "text" constitutes the building block on which critical judgments and artistic visions are based, which have been giving the impression that "text" is still a term that has not been based on a specific concept, as it sometimes expands to include discourses of all kinds; Literary, political, social..), and at other times it is undermined to mean a single phrase or a single sentence - in the grammatical terms—

We aim from this paper to get acquainted with some of the meanings of the term "the text", especially the "literary text", and the concepts it refers to that define the relationship between the text and the creative mind, as well as the text and the recipient. By this, we mean that the "text" before it actually exists, is the effect of one idea that is formed by the creative mind (the author of the text), then other ideas are generated from it, either successively, contradictory or equivalent, then all of that is woven according to a certain way, and in a certain geometrical form called "text". Thus, it becomes isolated and independent from its owner, and here interpretation has the power for modification, change or even altering this entity.

Keywords:.....

1. مقدمة:

يشكل مصطلح "النص" في حقل الممارسة النقدية المعاصرة، اللبنة التي ترتكز عليها الأحكام النقدية وكذا الرؤى الفنية، التي ما فتئت تعطي الانطباع بأن "النص" لا يزال ذلك المصطلح الذي لم يرس على مفهوم محدد، فهو تارة يتسع ليشمل الخطابات بشتى أنواعها (أدبية، سياسية، اجتماعية..)، وتارة أخرى يتقوَّض ليعني العبارة الواحدة أو الجملة الواحدة - بتعبير النحويين- وإننا نروم من هذه الورقة أن نلّم ببعض معاني مصطلح "النص"، وبالأخصّ "النص الأدبي"، وما يحيل إليه من مفاهيم تحدّد العلاقة بين النصّ والمبدع، وكذا النصّ والمتلقّي، وإننا حين نتحدّث عن أحادية الرؤية، أو أحادية التشكّل كما يراها البعض، إنّما نقصد بذلك أنّ "النص" قبل أن يوجد بالفعل، يكون أثراً لفكرة واحدة تتشكّل لدى المبدع (صاحب النص)، ثم تتولّد عنها أفكار أخرى، إمّا تتابعا أو تعارضا أو تقابلا، ثم ينسج كلّ ذلك وفق طريقة معيّنة، وفي شكل هندسي معيّن يسعى "نصّا"، فيصبح متفردا ومنعزلا عن صاحبه، وهنا يصبح للتأويل سلطة التحوير أو التغيّر أو التبدّل، وإنّ التأويل لا ينطلق من العدم، بل إنّهُ يرتكز أوّل الأمر على "النص"، فينظر إليه من زوايا متعدّدة، كانت رؤية صاحب النصّ قاصرة عنها، في غالب الأحيان، كما أنّ التأويل يأتي بطريق التلقّي، فالمتلقّي حينما يكون إيجابيا أو سلبيا، تتعدّد آفاق التأويل لديه فينتج من نصّ واحد، نصوصا لا حصر لها، لم تخطر على بال صاحب النصّ الأوّل، أو على الأقلّ يصبح النصّ الأوّل مادة خاما، تنصهر لتنتج نصوصا أخرى. من هنا جاء العنوان "النص الأدبي من أحادية الرؤية والتشكّل إلى آفاق التأويل".

2- النصّ في المفهوم التراثي والحداثي العربي:

- جاء في قاموس "مقاييس اللغة" لابن فارس¹ (نص) النون والصاد أصل صحيح، يدل على رفع وارتفاع، وانتهاء في الشيء، ومنه قولهم: نصّ الحديث إلى فلان: رفعه إليه، والنص في السير أرفعه، ويقال: نصّبت ناقتي...².

- [نصص]

قولهم: نصّبت ناقتي، قال الأصمعيّ: النصّ السيرُ الشديّد حتّى يستخرج أقصى ما عندها. قال: ولهذا قيل نصّبت الشئ: رفعته. ومنه منصّة العروس. ونصّبت الحديث إلى فلان، أي رفعته إليه. وسيّر نصّ ونصيص. ونصّبت الرجل، إذا استقصيت مسألته عن الشئ حتّى تستخرج ما عنده. ونصّ كل شئ: منتهاه³.

- [نصص]

قولهم: نصّبت ناقتي، قال الأصمعيّ: النصّ السيرُ الشديّد حتّى يستخرج أقصى ما عندها. قال: ولهذا قيل نصّبت الشئ: رفعته. ومنه منصّة العروس. ونصّبت الحديث إلى فلان، أي رفعته إليه. وسيّر نصّ

وَنَصِيصٌ. وَنَصَصْتُ الرَّجُلَ، إِذَا اسْتَقْصَيْتَ مَسْأَلَتَهُ عَنِ الشَّيْءِ حَتَّى تَسْتَخْرِجَ مَا عِنْدَهُ. وَنَصُّ كُلِّ شَيْءٍ: مَنَتهَا. وَفِي حَدِيثٍ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ: إِذَا بَلَغَ النِّسَاءُ نَصَّ الْحِقَاقِ، يَعْنِي مَنَتَى بِلُغِ الْعَقْلِ⁴.

- (نصص)

الْمَتَاعُ نَصَهُ وَغَرِيمَهُ نَاصَهُ، (اننص) الشَّيْءُ ارْتَفَعَ وَاسْتَوَى وَاسْتَقَامَ يُقَالُ اننص السَّنامُ وَالْعُرُوسُ وَنَحْوَهَا قَعَدَتْ عَلَى الْمُنْصَةِ. (تناص) الْقَوْمُ اَزْدَحَمُوا، (المنصة) كُرْسِيٌّ مُرْتَفَعٌ أَوْ سَرِيرٌ يَعْدُ لِلْخَطِيبِ لِيَخْطُبَ أَوْ لِلْعُرُوسِ لَتَجْلِيَ وَقَدْ يَزِينُ بِثِيَابٍ وَفَرَشٍ وَيُقَالُ وَضَعَ فَلَانٌ عَلَى الْمُنْصَةِ افْتَضَحَ وَشَهَرَ (ج) مَنَاصٍ (الْمُنْصُوصُ) عَلَيْهِ الْمُبِينُ الْمُعِينُ. وَ(النص) صِيغَةُ الْكَلَامِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ مِنَ الْمُؤَلِّفِ (مُو) وَمَا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنَى وَاحِدًا أَوْ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ لَا اجْتِهَادَ مَعَ النَّصِّ (مُو) (ج) نُصُوصٌ وَ (عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ) الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ وَمَنْ الشَّيْءُ مَنَتهَا وَمَبْلَغُ أَقْصَاهُ يُقَالُ بَلَغَ الشَّيْءُ نَصَهُ وَبَلَغْنَا مِنَ الْأَمْرِ نَصَهُ شَدَّتْهُ. وَ(النصة) مَا أَقْبَلَ عَلَى الْجَبْهَةِ مِنَ الشَّعْرِ الْقِصَّةِ (ج) نصص ونصاص⁵.

3- مفهوم النص في الاصطلاح الحديثي:

- إِنَّ زُبَيْقِيَةَ الْمَصْطَلَحِ تَحُولُ دُونَ إِعْطَائِهِ مَفْهُومًا دَقِيقًا، أَوْ عَلَى الْأَقْلَى الْإِحَاطَةَ بِالْمَفْهُومِ، فَحِينَ تَتَلَاشَى حُدُودَهُ الْمَنْهَجِيَّةَ، يَفْقَدُ طَابِعَهُ الْإِجْرَائِيَّ، وَحِينَئِذٍكَ يَصْبِحُ "النص" مَصْطَلَحًا عَائِمًا، فَمِنْ مَفَاهِيمِهِ أَنَّهُ "صِيغَةٌ مِنْ صَيَغِ اسْتِغْثَالِ اللُّغَةِ، فَقَدْ شَكَلَ مَوْضُوعًا لِلتَّحْدِيدِ الْمَفْهُومِيِّ فِي فَرَنْسَا، خِلَالِ سَنَوَاتِ السِّتِينَاتِ، حَوْلَ مَجْلَةِ (تَال كَال/ Tel quel)، مَعَ رُولَانِ بَارْتِ وَجَاكْ دَرِيدَا وَفِيلِيْبِ سُولِرْزِ وَخَاصَّةً جُولِيَاكْرِيسْتِيْفَا"⁶، لَقَدْ سَعَى النِّقْدُ الْمَعَاصِرُ إِلَى إِخْرَاجِ "النص" مِنْ تِلْكَ الْمَفَاهِيمِ الَّتِي كَانَتْ شَائِعَةً، وَمُرْتَبِطَةً بِبَعْدِهِ الْهَنْدَسِيِّ الَّذِي يَخْتَلِفُ طَوْلًا وَعَرْضًا، فَ"النص" لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ "الشَّكْلُ اللُّغَوِيُّ الَّذِي يَمْتَّازُ بِطَوَّلٍ مُعَيَّنٍ كَأَن يَكُونَ قِصَّةً أَوْ رَوَايَةً أَوْ مَقَامَةً أَوْ مَعْلَقَةً أَوْ كِتَابًا...، بَلْ إِنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَتَطَابَقَ مَعَ جُمْلَةٍ كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَطَابَقَ مَعَ كِتَابٍ كَامِلٍ، وَيَعْرِفُ بِاسْتِقْلَالِيَّتِهِ وَانْغِلَاقِهِ، يَشْكَلُ نِظَامًا مُخْتَلِفًا عَنِ النِّظَامِ اللُّغَوِيِّ، وَلَكِنَّهُ يَوْجَدُ فِي حَالَةٍ تَعَالُقٍ مَعَهُ، عِلَاقَةٌ تَعَاجِدُ وَعِلَاقَةٌ مُشَابِهَةٌ"⁷، إِنَّ النَّصَّ نِظَامٌ إِحَالِيٌّ، يَأْتِي فِي الْمُرْتَبَةِ التَّالِيَةِ لِنِظَامِ الدَّلَالَةِ، فَهُوَ لَيْسَ "بِنَاءٌ لُغَوِيًّا فَحَسْبُ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ ذَلِكَ الْبِنَاءُ فِي سِيَاقٍ تَفَاعُلِيٍّ بَيْنَ مَخَاطِبٍ وَمَخَاطَبٍ، تَفَاعُلٌ لَا يَتِمُّ بِجُمْلٍ مُتْرَاكِمَةٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، كَيْفَمَا اتَّفَقَ، غَيْرَ مَتَمَاسِكَةٍ وَلَا يَرْبِطُهَا رَابِطٌ. وَلَا تَدْرِكُ النُّصُوصُ بِوَصْفِهَا أَفْعَالٌ تَوَاصَلُ فَرْدِيَّةً، بَلْ بِوَصْفِهَا نَتَائِجٌ مُتَجَاوِزَةُ الْإِفْرَادِ. وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، يَجِبُ أَنْ يَتَّخَذَ التَّحْلِيلُ اللُّغَوِيُّ النَّصَّ مَبْتَغَاهُ النِّهَائِيَّ فِي الدِّرَاسَةِ، وَهُوَ مَا دَعَا إِلَيْهِ (فَاينِرِش 1927) وَ(ب. هَارْتْمَان 1968)"⁸، وَإِذَا كَانَ الْمُبْدَعُ وَثِيقَ الصِّلَةِ بِمَجَالَاتِ الْحَيَاةِ، بَلْ إِنَّهُ مُتَأَثِّرٌ بِهَا وَمُؤَثِّرٌ فِيهَا، فَإِنَّهُ وَلَا غَرَوَ، صُورَةٌ لِمُجْتَمَعِهِ وَلِسَانُهُ النَّاطِقُ بِثِقَافَتِهِ، وَمِرَآةُ الْعَاكِسَةِ لِأَحْوَالِهِ وَصِفَاتِهِ، فإِبْدَاعُهُ "فِي أَبْسَطِ مَظَاهِرِهِ كَلَامٌ، كَمَا أَنَّهُ إِبْدَاعٌ فَرْدِيٌّ، يَبْدَعُهُ فَرْدٌ مُنْغَرَسٌ فِي الْجَمَاعَةِ، وَيَتَجَهَّ بِهَ إِلَى جُمْهُورٍ الْقَرَاءِ"⁹. وَحَتَّى يَحْظِيَ النَّصُّ، ظَاهِرَةً اجْتِمَاعِيَّةً، بِتَفَاعُلِ جُمْهُورِ الْقَرَاءِ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَلَامَسَ فِيهِمْ مَكَامِنَ الْإِثَارَةِ، وَبِذَلِكَ يَتَشَكَّلُ عِنْدَ الْقَرَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ، وَتَفَاوُتِ مَسْتَوِيَّاتِهِمْ، جُمْلَةٌ مِنْ رَدُودِ

الأفعال حول هذه الظاهرة الأدبية، إما قبولاً أو رفضاً، وهو ما يعرف عند النقاد بالاستجابة، فالأدب الذي لا يحدث في المتلقي أثراً، ليس أدباً. على مذهب عباس محمود العقاد. وإذا فالنص ظاهرة أدبية إبداعية، تراعي جوانب شتى في المتلقي، فهي ليست عملية اعتباطية أو تقع دون قصد، إنما "تتجاذب عملية الإبداع معطيات وجوانب عدة، فالألفاظ مثلاً، تتشكل على وفق اختيار المبدع، ورغبته في استخدامها للتعبير عن المكنون الذهني، ولهذا فهي في حالة نمو وتبادل مع الدلالة، ولذلك يتجاوز الجرجاني(ت474هـ) حدود اللفظة الواحدة إلى المستوى التركيبي، لأنه لا يرى في اللفظة أي مستوى جمالي، من دون الدخول في النظم ودائره، فاللفظة لا يتحقق معناها الجمالي إلا من خلال التركيب، كما أن السياق يمد التركيب بالإفادة الجمالية، ويكسبه شكله الخارجي"¹⁰. ليصل إلى نص يتلقاه القارئ أو السامع على هيئته الأولى، ثم يحدث ذلك التفاعل، إن على مستوى الألفاظ أو الشكل، فيتولد عن ذلك أشكال تختلف باختلاف وعي ومستوى المتلقي.

- إن المسألة تبدو لأول وهلة معقدة وهي "من المسائل المهمة في عملية الإبداع والاتصال اللغوي، إن المتكلم/المبدع يحول المعنى إلى مبنى، في حين إن المتلقي/القارئ يحول المبنى إلى معنى، عملية عكسية. وقد عرض الجرجاني لبلاغة الارتباط بين صيغ الجمل وترابطها وانسجامها وتلاحمها في نسق مخصوص، وأكد أن ذلك الترابط يشكل بجملة صورة كلية خاصة منسقة هي النص"¹¹. ولعل هذا الترابط ليس ترصيص كلمات إلى بعضها بقدر ما هو استدعاء للمعاني التي يستلزمها الإيقاع الداخلي للألفاظ. وهنا يصبح المبدع أما مفيض من الألفاظ عليه أن ينتقي التي تكون أكثر دقة في الإحالة على المكنون الذهني لديه. فالاختيار لا يمليه الشكل، بقدر ما يمليه المعنى العام الذي يرمي إليه صاحب النص/المبدع، فالنص "شبكة من العلامات والسمات، تلك العلامات لا تستقل بذاتها بل تربطها مع غيرها من علامات النص الأخرى لتحيل إلى الدلالة الكلية، التي يمكن التوصل إليها، من خلال تشخيص المعنى"¹²، بهذا المفهوم يتجاوز النص العلامات إلى تلك العلاقات القائمة بين الألفاظ، في شكل نسيج معقد، يحيل إلى دلالة كلية، موزعة على جملة من الألفاظ/العلامات، ذات دلالات ومعاني مختلفة، يصهرها السياق في دلالة واحدة. يتميز بها المبدع عن غيره، إنه "الأسلوب" الذي وفقه يختار وبه يوزع، فـ "التوظيف الأسلوبي والتنوع اللغوي القائم على أسس اختيار المفردات وحملها من بعد للمعاني المناسبة في سياقات عدة، الأسس التي نبني على معطيات نظرية النظم في التعليق والإسناد والتأليف والتركيب، فاختيار الألفاظ ومدى فصاحتها، وتناسقها مع بعضها وتركيبها لتشكيل الدلالة الكلية للنص، كل ذلك يعكس أسلوب المبدع، وكيفياته في الصياغة والجودة، لأن التكوين الأسلوبي يخضع لاعتبارات صاحبه وطريقة عرضه وصوغ نظمه"¹³.

- ويذهب محمد مفتاح إلى النص من باب تساؤل، يبحث في كنه النص، وماهيته، "ما هو النص؟، ثم يجيب قائلاً: أهم ضابط للنص هو الانسجام، وهو يضم عدة عناصر، وفي هذا المفهوم خلاف، ويمكن

أن نتكلم عن مفهوم الاتساق، ومفهوم التنضيد، فمفهوم التنضيد هو المرحلة الأولى، أي العلاقة بين الجمل؛ واو العطف، فاء السببية إلى غير ذلك، ارتباط الكلام بعضه ببعض وتراصه...، ونقصد بمفهوم الاتساق، العلاقة المعنوية بين الجمل، علاقة عموم بخصوص، أو علاقة تضمن، أما مفهوم الانسجام، فهو أعم، انسجام النص مع العالم الواقعي، إذ إن كل نص هو متتالية من الأفعال الكلامية المترابطة، ويخلص إلى أن "النص عبارة عن متتالية من الجمل بينها علاقة من العلاقات، ومتى انعدمت هذه العلاقة لا يبقى هنالك نص"¹⁴، ويرى محمد مفتاح أن النص يفتقر إلى هذه الصفة، إذا انتفى الارتباط بين وحدات الشكل وكذا المضمون. فالتنضيد هو الترابط الذي يحصل على مستوى التركيب، ويعني ما يحقق الترابط بين الجمل والعبارات على مستوى الشكل، من مظاهر التقديم والتأخير، والتمام والنقصان، وغيرها مما يدرك بالظاهر دون الغوص في المعنى، أي العلاقات بين الكلمات. وأن الاتساق هو الخيط المعنوي، الذي يحقق الترابط بين دلالة هذه الكلمات، فيلبسها معاني تنصهر في الدلالة الكلية للنص. أي يجرد الاتساق الكلمات من معانيها المعروفة بها خارج نسق النص الواردة فيه، ويلبسها معاني تحيل إلى الدلالة الكلية التي يرمي إليها النص وبما أن "الانسجام يتعلق بالمعنى العميق للنص، أي دلالاته، فإن متتاليات الجمل تحيل إلى عالم ممكن، مرتبط بزمان ومكان، وهذا العالم هو الذي يضمن الانسجام الخطي للنص"¹⁵.

4- النص والخطاب، ترادف أم تعارض؟

- إذا كان فعل الكتابة يفضي إلى ميلاد نص، فإن فعل القول يفضي إلى ميلاد خطاب، وهذا يعني؛ أن الكتابة تستدعي تلقائياً فعل القراءة، والقراءة تأتي في المرحلة الثانية بعد الكتابة، ويقع النص بينهما، ليصبح النص امتداداً ونتاجاً لفعل الكتابة، ثم إن القراءة تخرج النص من الرسم الخطي إلى اللفظ المنطوق، وأن "الكتابة هي الموضوع الذي يتولد فيه المعنى، وليس مجرد مكان تتمظهر فيه. أما النص فهو نظام حي ملموس من العلاقات ذات مضمون على عكس اللغة، التي هي نظام من الأشكال الفارغة"¹⁶. ولأن القراءة شرط لازم لتمظهر الكتابة. إن الحديث عن النص يفترض التعامل مع جملة من المصطلحات التي تسبح في فلكه، وبالكاد تتداخل مفاهيمها والنص، منها (المتن corpus) و(الخطاب discours) وحتى العمل الأدبي الذي يقترب كثيراً من مفهوم النص، ويكفي أن نقف في هذا العنصر على الفوارق بين هذه المصطلحات، حتى يتبين كل منها، على حدة، وقد ذهب غير واحد من علماء اللغة إلى اعتبار النص هو الخطاب ولا فرق بينهما، ويورد غريماس أن "المفهومين يتداخلان إلى حد الاندماج، بحيث إن كلمة (نص) غالباً ما تأتي مرادفة لكلمة (خطاب)، خاصة أن التفسير المفهومي في اللغات الطبيعية التي لا تمتلك مقابلاً لكلمة (الخطاب) الفرنسية والانجليزية مثلاً، وفي هذه الحال، فإن السيميائيات النصية لا تفترق في الأصل مع سيميائيات الخطاب"¹⁷.

ويذهب محمد عابد الجابري إلى أن الخطاب والنص مفهوم واحد، فـ "النص رسالة من الكاتب إلى القارئ، فهو خطاب، والخطاب باعتباره مقول الكاتب.. فهو بناء من الأفكار، يعني نصاً"¹⁸. وأما فان دايك فإنه يميز تمييزاً دقيقاً بين النص والخطاب؛ "فالخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية، ونتيجتها الملموسة. أما النص فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب، وتعبير آخر؛ فإن الخطاب ملفوظ (أو تلفظ)، ذو طبيعة شفوية لها خصائص نصية، بينما النص هو الشيء المجرد الافتراضي الناتج عن لغتنا العلمية"¹⁹.

- ومن جملة الخصائص التي يمتاز بها النص عن الخطاب، أنه يستمد استقلاليتته وحضوره من الثقافة التي ولد فيها المبدع.. أما الخطاب فهو يعقد القران بين ثقافتين في الأقل متكلم/مخاطب (بكسر الطاء). سامع/ مخاطب (بفتح الطاء)، دون مراعاة النسق العام الذي يدور فيه الخطاب، كما أن الخطاب قد تدرك مغازيه ومعانيه لأول وهلة، فهو يراعي أدنى حلقة في فئة المتلقين، ويكون فيه المتكلم والسامع على قدر واحد من الفهم والإفهام. وأما النص ونظراً لتعدد مستوياته وتشعبها، وكثرة موارده وتشابكها (ظاهرة التعاقب النصي أو التناسل)، فإنه يستحيل إدراك بنيته والوقوف على معناه، وإنما تعد كل قراءة بمعنى مقارنة، ذلك أن "بنية النص ليست مسطحة، بل هي بنية متعددة المستويات، ويمكن تحديد هذه المستويات عن طريق وسائل إجرائية تفرضها طبيعة النص ذاتها، وهذا التعدد في المستويات يحول دون تحديد النص الأدبي والإبقاء على استقلالية مستوياته، كما يستحيل القبض على مستويات النص المختلفة دفعة واحدة"²⁰. ناهيك من أن مصطلح "النص" يدين للكتابة حتى يستوفي صفة النص، وما دون ذلك تنتفي عنه الصفة أو كما تسمى ذلك جوليا كريستيفا بـ "اللا نص" Non-texte. وذلك أن النص يعمل على تفجير سطح اللغة كما ترى جوليا كريستيفا، فإنه يعني "ممارسة لغوية تميز النص عن مفهوم آخر هو اللا نص، حتى ون كان يستعمل اللغة ذاتها ويلتزم قدر الإمكان بالمعايير النحوية، إلا أنه على مستوى الدلالة يقترح دلالة واحدة، وميزته هي ارتباط الدال بمدلول واحد. إن اللا نص يذوب في المدلول اللغوي ولا يمكن اعتباره كذلك إلا من هذا المنظور. في حين أن النص يتميز بخصائص إضافية، أي نظم خاص يميزه عن اللا نص"²¹، ويمكن أن يندرج ضمن هذه لأشكال التي وصفت باللا نص، مصطلح الخطاب.

- وخلاصة القول؛ هي أن النص يرتبط بالكتابي (التشكيلي/الخطي)، والخطاب بالشفوي (الصوتي/الملفوظ)، والخطاب بوصفه ملفوظاً فإنه يتعارض والنص. كما أن النص يعضده مصطلح آخر ويزاحمه في الدلالة، وهذا المصطلح هو "العمل الأدبي"، الذي يعني في مفهوم النقاد المحدثين: "الموضوع المنجز الذي يتكون من كتابة منغلقة على نفسها، على عكس النص الذي صار مجالاً منهجياً لا نعرفه إلا من خلال نشاط القراءة أو أثناء إنتاجنا له"²²، إن العمل الأدبي يقتضي الاستمرارية، وقد تتشعب أفكاره وتعدد مجالاته، إذ لا يمكن حصره في مجال واحد، أما النص الأدبي فإننا حين ندرك المعنى المراد، نكون

قد أتينا على حدود النص الافتراضية والشكلية، لذا يصطلح على مجموع النصوص التي يؤلفها المبدع بـ "الأعمال الكاملة"، حينذاك أنت أمام كتلة من النصوص تتعدد أزمنة كتابتها، وموضوعاتها وأشكالها، وربما حتى أجناسها، إذ لا يمكن أن نسميها جميعا "نصا". ومن هنا يصبح النص أكثر وضوحا وأجلى من حيث الحدود الشكلية والافتراضية. ويذهب رولان بارت إلى أن "النص هو حقل منهجي... النص متعدد، وهو تعبير... العمل الذي يوضع داخل انتساب، تتابع لمجموعة من الأعمال وامتلاك كاتب لها.. النص يقرأ دون كتابة مؤلفه، العمل يحيل إلى صورة منظمة"²³، كتوالي مجموعة من النصوص مستقلة عن بعضها أو بينها روابط. إن هذه الثنائية (نص - عمل أدبي)، تفترض ثنائية تقابلها (قراءة - كتابة)، بحيث يصبح الشكل على النحو الآتي:

نص ----- قراءة (القراءة لا تكون إلا مكتوب).

عمل أدبي ----- كتابة (تنتج الكتابة نصا أو مجموعة من النصوص).

5- النص الأدبي من منظور التلقي والتأويل:

يكتب النص ليقرأ، ويقرأ ليفهم، ولا يمكن أن يفهم إلا إذا أوتي القارئ للنص أدوات الفهم، وهي في أبسط مراحلها، اتفاق القارئ والمبدع على أبجديات اللغة التي كتب بها النص، فالنص حين يصبح مستقلا عن ذات صاحبه، يفتح مجالا أرحب لتعدد المعاني، فتفتق آفاقه، وتتجلى حدوده، فالمتلقي الإيجابي لنص ما يخرج من نص واحد مجموعة من النصوص، مرد ذلك إلى مستوى الوعي لدى المتلقي، لذا يفترض النقد في عملية القراءة، أن يكون المتلقي في أدنى مرحلة قارئاً، أي مفككا لرموز النص، ثم مستنبطا لمعاني النص، سابرا لأغواره، ثم ناقدا له. حينها يتخذ من النص موقفا معينا، يدفع بالضرورة إلى إنتاج نص آخر يجسد به ذلك الموقف. أي يمارس النص أثناء عملية القراءة على القارئ أو المتلقي سلطة الاستيلاء، فإن أفجح كان موقف القارئ موافقا لموقف المبدع مماشيا له، فإن لم يفجح كان موقف القارئ معارضا لطرح المبدع رافضا له، وفي الحالتين؛ قد تكونت نواة نص آخر، وفتح المجال أمام ظاهرة توالد النصوص، وفي المهمة التي يقوم بها ولأجلها النص، فـ "النص ينمو بطريقة أفقية حسب آليات معينة، مثل أدوات الربط الحرفية والاستعارات والكنيات والمجاز المرسل، هذا الترابط الأفقي يمكن أن نقسمه إلى نوعين: أحدهما خاص، وهو الذي يبحث فيه لسانيو الخطاب، وثانيهما عام، وهو ما ينطلق من ثوابت قليلة مفترضة، يبرهن عليها بقراءة النص، قراءة متعددة قائمة على حفریات في اللغة، مما يؤدي إلى علاقة أفقية شاملة"²⁴. حتى إذا استوفت القراءة شروطها عند القارئ/المتلقي، صح له أن يؤول النص تنقيبا واستنباطا (كما يحدث في النصوص الشعرية)، أو شرحا أو تعقيبا (كما يحدث في النصوص الأدبية وغيرها)، وما تجدر الإشارة إليه؛ أن "عملية تأويل النصوص ليست على درجة واحدة، فهناك ما يمكن تأويله من أي مكان، وهناك ما لا يتأوله إلا الراسخون في العلم، مثل الصنف الأول أو الخواص من العلماء، وما أول يجب أن ينقل التمثيل فيه للمؤول لهم، إلى ما هو أقرب من معارفهم"²⁵.

فالصنف الأول الذي ورد ذكره في القول، إنما المقصود به، تلك المعلومات التي صرح بها صاحب النص، فكل ما صرح به غير قابل للتأويل ما لم يكن رمزا، كالتصريح بالأسماء والأماكن والشخص. أما المتلقي فإنه يؤول النص أو بعض النص بالاعتماد على درجة الوعي لديه، والمرجعية الثقافية التي تسنده، ومن هنا تتعدد التأويلات عند المتلقي الواحد، بتعدد القراءة، ويمكن أن نمثل لذلك، بلوحة "الموناليزا" للرسام ليوناردو دافينشي، فحيثما كانت نفسية الناظر قابلته صورة المرأة على اللوحة، ومن أي زاوية نظر إليها ارتطم بصرها بناظرها، فإن كان حزينا بدت عليها مظاهر الحزن والشفقة، وإن جاءها مبتسما بدت عليها مظاهر الفرح والسرور، ولعل المتلقي لا يخرج عن هذه الدائرة في تعامله مع النص، فإن كانت ثقافته ومستواه أوسع كانت آفاق التأويل لديه أرحب. وكان إدراك معاني النص لديه أسرع وأقرب إلى المعنى الحقيقي للنص (الذي هو ملك صاحب النص دون سواه)، وكلما قل ذلك بعدت عليه الشقة، وعسر عليه الأمر، وعليه قسم النقد القراء إلى درجات وأنواع؛ فأدناهم القارئ درجة صفر، وهو الذي يكون في الغالب أقل من مستوى النص المقروء، ويكتفي من القراءة بالتعلم والاستزادة، أي إثراء الرصيد المعرفي. إذ لا يبدي موقفا ولا يعارض فكرة، وينقض طرحا، ويمكن أن نسميه القارئ المبتدئ. وأعلامهم القارئ المحترف، ويمكن أن نصطلح عليه بالقارئ الناقد، الذي تنكسر أمامه طابوهات النص، وهو الذي يبصر المبدع بثغرات نصه، ومكامن القوة والضعف فيه، ويدرك التعالق بين النص الظاهرة والنصوص المبطنة فيه (ظاهرة التعالق النصي/التناس)، وبين النوعين من القراء، تتعدد الدرجات على اختلاف التكوين والمرجعية الثقافية، والحمولة المعرفية، ومع هذا التنوع يتنوع تأويل النصوص، وكلما تنوعت ازدادت قربا من المعنى الحقيقي للنص.

وأما النص والتأويل، فلقد "ارتبط مصطلح التأويل في التراث الأدبي العربي بفعل القراءة/ التلقي للنص بغرض فهمه ومعرفة مضمونه، فكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت، هو وجود مضامين ثابتة، وحقائق نهائية بخصوص المعاني المطروحة في النص، وسار فعل القراءة محتفظا بهذا المفهوم فترة طويلة من الزمن، حتى ظهرت المدارس النقدية الحديثة، ووضعت مفهوما جديدا للقراءة، وربطت فعل القراءة بفعل التأويل"²⁶، ولما أصبح النص تتقاسمه عدة أطراف من حيث الإنتاج وكذا الإحالة، حينها "تحول العمل الأدبي إلى نص مفتوح، تتقاسم مسؤولية إنتاجه وإثرائه بالتأويلات جهات متعددة، مؤلف بطروفه الاجتماعية، ونص بنسججه اللغوي، وخصائصه الأسلوبية، وبنياته المتعددة، وقارئ باختلاف مستوياته، وحمولته المعرفية..²⁷

ف " التأويل – إذن- فاعلية ذهنية إنسانية، تتيح للمتلقي تعمق أغوار النص، والبحث عن حقائقه المضمره، وربما المغمورة لاعتبارات خاصة، بغرض فهمه، فالتأويل يشكل التجسيد العملي لمضمون الفهم في كل عملية تواصلية"²⁸. وتصبح العملية على هذا النحو:

النص --- التلقي --- الفهم --- التأويل ---- الإنتاج.

المراجع:

- 1- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (329-395هـ/941-1004م)، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني، والصاحب بن عباد، وغيرهما من أعيان البيان.
- 2 - أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مقاييس اللغة، ج5، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان 1979، ص. 356.
- 3 - أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، الفراهي (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، ط4، تحقيق عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987، ص. 1058.
- 4 - ينظر، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، منتخب الصحاح، ج1، ط4، تحقيق عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، ص 5194. في هذه النسخة دقة في الضبط والترتيب والشكل.
- 5 - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ببلقاهرة، ج2، دار الدعوة، مصر، ص 926.
- 6 - حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1 الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت 2007 ص. 43.
- 7 - المرجع نفسه ص. 43.
- 8 - رشيد عمران، تجليات النظرية اللسانية النصية في الخطاب، التحليل النصي للباقلاني أنموذجا، مجلة مطارحات في اللغة والأدب، ع2 مارس 2010، الجزائر، ص. 171.
- 9 - حسين الواد، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس للنشر، تونس 1975. ص 37.
- 10- محمد سالم سعد الله، ما وراء النص، دراسات في النقد المعرفي المعاصر، ط1، جدارا للكتاب العالمي وعالم الكتب الحديث، الأردن 2008، ص 83.
- 11- محمد سالم سعد الله، ما وراء النص، ص 83.
- 12- المرجع نفسه، ص 85.
- 13- المرجع نفسه، ص 87.
- 14- محمد مفتاح، التحليل السيميائي، أبعاده وأدواته، مجلة دراسات سيميائية، أدبية لسانية، ع1، فاس المغرب 1987، ص. 17.
- 15- حسين خمري، نظرية النص، ص 49.
- 16- المرجع نفسه، ص 61.
- 17- حسين خمري، نظرية النص، ص 60.
- 18- محمد علبد الجابري، تحليل الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1985. ص 08.
- 19- حسين خمري، نظرية النص، ص 60.
- 20- حسين خمري نظرية النص، ص 55.
- 21- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة، دار الطليعة، بيروت لبنان، 1985، ص 14.

- 22- جابر عصفور، تعريف بالمصطلحات الأساسية، ضمن عصر البنيوية، دار الآفاق العربية، بغداد 1985، ص 291.
- 23- حسين خمري، نظرية النص، ص 61.
- 24- محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب 2001، ص 87.
- 25- المرجع نفسه، ص 97.
- 26- لطفي فكري محمد الجودي، النص الشعري بوصفه أفقا تأويليا، قراءة في تجربة التأويل الصوفي عند محي الدين بن عربي، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010. ص 17.
- 27- المرجع نفسه ص 19.
- 28- المرجع نفسه، ص 15.

الاحالات

- ¹ أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (329-395هـ/941-1004م)، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمداني، والصاحب بن عباد، وغيرهما من أعيان البيان.
- ² أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مقاييس اللغة، ج5، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، لبنان 1979، ص 356.
- ³ أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، الفراهي (ت 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، ط4، تحقيق عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987، ص 1058.
- ⁴ ينظر، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري، منتخب الصحاح، ج1، ط4، تحقيق عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، 1987، ص 5194. في هذه النسخة دقة في الضبط والترتيب والشكل.
- ⁵ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بلقاهرة، ج2، دار الدعوة، مصر، ص 926.
- ⁶ حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1 الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت 2007 ص 43.
- ⁷ المرجع نفسه ص 43.
- ⁸ رشيد عمران، تجليات النظرية اللسانية النصية في الخطاب، التحليل النصي للباقلاني أنموذجا، مجلة مطارحات في اللغة والأدب، ع2 مارس 2010، الجزائر، ص 171.
- ⁹ حسين الواد، قراءات في مناهج الدراسات الأدبية، دار سراس للنشر، تونس 1975. ص 37.
- ¹⁰ محمد سالم سعد الله، ما وراء النص، دراسات في النقد المعرفي المعاصر، ط1، جدارا للكتاب العالمي وعالم الكتب الحديث، الأردن 2008، ص 83.
- ¹¹ محمد سالم سعد الله، ما وراء النص، ص 83.
- ¹² المرجع نفسه، ص 85.
- ¹³ المرجع نفسه، ص 87.

- ¹⁴ محمد مفتاح، التحليل السيميائي، أبعاده وأدواته، مجلة دراسات سيميائية، أدبية لسانية، ع1، فاس المغرب 1987، ص17.
- ¹⁵ حسين خمري، نظرية النص، ص49.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص61.
- ¹⁷ حسين خمري، نظرية النص، ص60.
- ¹⁸ محمد علبد الجابري، تحليل الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت 1985، ص08.
- ¹⁹ حسين خمري، نظرية النص، ص60.
- ²⁰ حسين خمري نظرية النص، ص55.
- ²¹ عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة، دار الطليعة، بيروت لبنان، 1985، ص14.
- ²² جابر عصفور، تعريف بالمصطلحات الأساسية، ضمن عصر البنيوية، دار الآفاق العربية، بغداد 1985، ص291.
- ²³ حسين خمري، نظرية النص، ص61.
- ²⁴ محمد مفتاح، التلقي والتأويل، مقارنة نسقية، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب 2001، ص87.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص97.
- ²⁶ لطفي فكري محمد الجودي، النص الشعري بوصفه أفقا تأويليا، قراءة في تجربة التأويل الصوفي عند محي الدين بن عربي، ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010، ص18.
- ²⁷ المرجع نفسه، ص19.
- ²⁸ المرجع نفسه، ص15.